الفصل 30

لا تدعِ الأوغاد يقضون عليك

كان خروجي من الزنزانة في سجن الإصلاح خبرةً سرياليةً، فعندما أحضروني إليه أول مرة فتشوني جسديًّا، وقيَّدوني، ورموني في قفص الحجز بانتظار جلسة المحكمة، أما الآن فها أنا ذا أُلوِّح بيدي مُودِّعةً القاضي موكاسي. بعد هذا الصراع العنيف للنجاة من الحجز إلى أجل غير مسمى، لم تستغرق عملية الإفراج عني أكثر من عشر دقائق. فُتِح الباب، فخرجت إلى عالم الحرية، وها أنا أسمع صوت البوابة الحديدية وهي تغلق من خلفي [548]. كان تالكين قد أبلغ صديقي فيلدز الذي كان بانتظاري أمام بوابة السجن.

ثم تقدَّم مني رجل محترم، ومن دون أن يَذكر اسمه، قال إنَّه المستشار القانوني السابق لديكتاتور بنما مانويل نورييغا، وإدوين ويلسون ضابط وكالة الاستخبارات الأمريكية الذي أُدين بتهمة تهريب أسلحة إلى ليبيا في سبعينيات القرن الماضي، وقضى (27) عامًا في السجن الانفرادي قبل أن يُطلَق سراحه، وقد تخلَّت عنه وكالة الاستخبارات المركزية، ونفت أن تكون قد كلفته بهذه العملية السرية. مثلما حدث معي إلى حدٍّ ما.

قال لي الرجل إنَّني كنت محظوظةً جدًّا، وأخذ يحملق في وجهي؛ هل كان يتأكد أنَّني ما أزال حيَّةً بالرغم مما مررت به من معاناة رهيبة؟ لم أكن أعرف وقتها كيف يمكن أن يكونوا عنيفين إذا أرادوا أن يعبثوا معي.

عندما طلبت بطاقة العمل الخاصة به هز الرجل رأسه بابتسامة، ثم قال لي إنَّه كان في قاعة المحكمة مصادفة هذا الصباح، محاولًا حل قضية أحد المتهمين في آخر يوم عمل للقاضي موكاسي، وأضاف بأنَّ القاضي كان كريمًا ومتسامحًا معي، ثم أخبرني كيف حقق شخصيًّا مع الجنرال نوربيغا في غرفة مظلمة لا يوجد فيها سوى مصباح صغير على الطاولة.

سموني مُتشكِّكةً إذا أردتم، ولكن من المتعارف عليه أن لا مصادفات في عالم الاستخبارات؛ فإذا كنتم تُصدِّقون أنَّ محاميًا كبيرًا تولى قضيتي نوربيغا وويلسون كان يزور المحكمة صباح يوم إطلاق سراحي من دون تخطيط سابق، فلن ألومكم على ذلك؛ لأنَّكم لا تعرفون أسلوب عمل الاستخبارات.

عندما صدر الحكم كنت واثقةً أنَّ الجهات الاستخباراتية تمنت أن يتوقف هذا الهجوم الآن، لكنَّ المشكلة هي أنَّ هذه المسرحة القضائية لم تنته بعدُ؛ فبالرغم من قضاء سنة في السجن، ومرور عامين ونصف العام على اتهامي، فإنَّني لم أُقدَّم إلى المحاكمة بعدُ، ولم يكن أحد يدري أنَّني كنت لا أزال في منتصف الطريق قبل انتهاء هذه الورطة. وما حدث هو أنَّ المحامي وقع في غلطة شنيعة أخرى عندما فشل في استغلال الفرصة التي أتاحها حكم القاضي موكاسي ليطالب برفض القضية، وفي الوقت نفسه، فقد بدأ بعض المفكرين المستقلين بين المُدونين عملية بحث لمعرفة السر الذي يخفيه الحزب الجمهوري وراء اتهامي، وسبب رفض الحكومة طلباتي المتكررة لتقديمي إلى المحاكمة، لقد أثار اتهامي وفق قانون الباتريوت اهتمام المُدونين الذين واصلوا الحديث عن قضيتي.

وماذا عني؟ حسنًا، لم أكن أعرف كيف أتوقف.

قبل مواصلة معركتي كان عليَّ أن أستعيد صحتي، وأن أسترد عائلتي الصغيرة، كانت قطتي مدنايت تنتظر عند بوابة البيت حين وصلت أنا وفيلدز، بدت القطة مدهوشة، لكنَّها عرفتني فورًا، ثم جاء الكلبان الصغيران وأخذا يركضان في الساحة احتفالًا بالمناسبة.

انهالت عليَّ المكالمات من أصدقائي الذين أثنوا على شجاعتي وصمودي، واستغربوا اتهام الحكومة لي بعدم الأهلية العقلية، وقد دعاني بعض هؤلاء الأصدقاء إلى التحدث أمام جمعية

سارة ماكليندون، في نادي الصحافة الوطني بواشنطن؛ تخليدًا لذكرى الصحفية الأمريكية الأُولى.

إنَّ الخطاب الذي ألقيته بعد أسبوعين من خروجي من السجن جعل عجلة القدر تدور من جديد، كان الجمهور صغيرًا، وضم نخبة من مثقفي واشنطن، وموظفي الكونغرس، وصحفيين، ومديري مراكز بحوث، وممثلين عن الاستخبارات البحرية ووزارة الخارجية.

كان برايان شوغنيزي من بين الحضور؛ وهو الرئيس السابق لدائرة مكافحة الفساد في المحكمة الاتحادية بواشنطن، وأحد مؤسسي شركة محاماة معروفة [549]، وكان قد عمل مع القاضي جون سيريكا الذي تولى قضايا فضيحة ووترغيت التي اتُّهِم فيها أعضاء من إدارة نيكسون. في تلك المحاكمات نجح شوغنيزي في إدانة اثنين من أعضاء الكونغرس في قضايا فساد، ثم تخصص في قضايا أمنية محلية وعالمية معقدة.

كان شوغنيزي يخفي وراء مظهره الأنيق وسلوكه المهذب، عقلًا قانونيًّا ثاقبًا. بعد سماع خطابي، طرح شوغنيزي سؤالًا في صُلْب الموضوع: «إذا كان المدعي العام يملك دليلًا حقيقيًّا ضدك، فلماذا لم يرفع القضية إلى المحكمة؟ لماذا سمح للمحامي باستخدام ذريعة انعدام الأهلية القانونية للمثول أمام القضاء من دون أن يعترض عليها؟ لماذا لم يهاجمها؟».

ثم عقَّب قائلًا: «عندما عملت في الادعاء العام كنت أريد متهمين يتمتعون بصحة عقلية لأتمكن من إدانتهم وسجنهم، لم أكن أسمح أبدًا لمحامي الدفاع أن يُقدِّم هذه المُسوِّغات من دون أن أتحداه، كنت أقاوم ذلك، وهذا ما يفعله المدعي العام في هذه الحالة، نحن لا نحب ذلك، ولو كنت مكانه لغضبت جدًّا من إعلان عدم أهليتك قانونيًّا».

أدرك شوغنيزي وجود أمر مريب عندما قال: «إذا كان المدعي العام يملك دليلًا حقيقيًّا ضدك»، لقد كان هذا الرجل مهذبًا عندما سأل إن كان يستطيع الاطلاع على الدليل في قضيتي.

التقينا بعد الخطاب، وتحدثنا بعض الوقت. وفي المساء، ذهبت إلى مكتبه، وناقشنا قضيتي مُطولًا، ثم انضم إلينا شخص آخر اسمه توماس ماتنغلي (نجح فيما بعدُ في استعادة سمعتي القانونية من بين الرماد)، لقد أثبت هذا الرجل أنَّه عبقري وفيلسوف بطريقته الخاصة، ومثقف في كثير من القضايا المحلية والعالمية، وكان يستطيع مناقشة أي قضية بتفصيل وبراعة،

ففي أثناء الجلسة، التفت إلى شوغنيزي، قائلًا: «أرى أنَّ عليك أن تتولى هذه القضية يا برايان، يمكنك أن تهزم قانون الباتريوت، يمكنك - على الأقل- أن تبرز بعض عيوبه، هل هذا صعب على شخص مثلك؟».

بدا لي عندها كما لو أنَّ الأقدار أخذت تعيد الأمور إلى مسارها الصحيح مرَّةً أخرى؛ فقد تولى شوغنيزي قضيتي بدلًا من تالكين؛ ما أحدث تحولًا حاسمًا في هذه القضية التي لم تنتهِ بعدُ.

وأخيرًا، وجدت مستشارًا قانونيًّا يعرف كيف تلتقي مصالح الاستخبارات وصناع القرار في واشنطن. وفي لحظة وفي لقاء واحد، وبمساعدة من ماتنغلي، أخذت قضيتي تتحرك على المستويات كلها.

في تلك الليلة أيضًا اكتشفت أمرًا مهمًّا لم أكن أعرفه من قبلُ، كان المنظم الرئيس لجمعية سارة ماكليندون هو جون إدوارد هيرلي؛ وهو مؤرخ للحرب الأهلية الأمريكية، وكان على علم بعلاقتي الوثيقة بهوفين.

قال لي هيرلي إنَّ العملاء السريين كانوا يترددون كثيرًا على المطعم الذي كنت أجتمع فيه مع هوفين، وإنَّ هوفين كان يدعوهم إلى ذلك المكان، وأضاف بأنَّه مستعد ليشهد بذلك في المحكمة.

كانت كيلي أوميرا (عضو في الجمعية) تتردد على المطعم أيضًا؛ وهي صحفية سابقة، وكانت رئيسة موظفي مكتب النائب آندرو فوربس، وقد حققت شهرة بعد نشر كتابها (انطفاء الطب النفسي: كيف يختلق هذا الطب الأمراض العقلية ويحقن بأدوية قاتلة) [550].

قالت كيلي إنَّها تعرف هوفين منذ عشرين عامًا [551]، وإنَّه كان يتحدث عني طوال الوقت، ووصفته بوسيط استخبارات؛ وقد اعتاد هوفين اصطحاب أوميرا للتدرب على إطلاق النار في مزرعة بيل ويزنبيرغر ضابط الاستخبارات المعروف الذي كانت له علاقات بليبيا وإدوين ويلسون، كان هوفين يتحدث إليها عن أوليفر نورث ودوره في فضيحة إيران كونترا، إلى جانب جيني ويتون ودوره في مشروع المشتريات العسكرية.

قالت كيلي إنَّها مستعدة لتشهد بذلك أمام المحكمة، وإذا أنكر هوفين ذلك فهذا يعني أنَّه ينتهك القانون، ويعرقل سير العدالة.

كان واضحًا في تلك الليلة أنَّ معسكر الحقيقة مستعد للمواجهة والدفاع عني.

بيَّنت كيلي في كتابها أخطار الأدوية المُغيِّرة لبنية العقل، وكيف تدفع الطلبة المراهقين إلى إطلاق النار في مدارسهم، وتدفع البالغين إلى اقتراف جرائم قتل [552].

أوردت الكاتبة أدلة تُثبِت أنَّ عددًا كبيرًا من القتلة يشتركون في شيء واحد، هو أنَّهم يبدؤون في تناول مضادات الاكتئاب، خاصةً البروزاك، قبل الجريمة بأيام أو أسابيع، وقالت إنَّ تناول البروزاك يؤدي إلى نتائج خطيرة، مثل قتل أفراد العائلة، أو زملاء الدراسة، لكنَّ شركات تصنيع الأدوية، مثل إيلي ليلي، تمارس ضغوطًا كبيرةً على وسائل الإعلام لمنعها من نشر تقارير عن الآثار الخطيرة لهذه الأدوية، ونتيجةً لذلك فإنَّ المواطنين العاديين يجهلون العلاقة بين الأدوية المضادة للاكتئاب والسلوك العنيف المفاجئ، بما في ذلك القتل، علمًا بأنَّ عمليات الانتحار تزداد بعد تناول هذه الأدوية.

أوضحت كيلي، تبعًا لشهادات المتخصصين، كيف يعمل الطب النفسي على نشر أمراض العقل، وقد نفى هؤلاء المتخصصون وجود دليل علمي يُثبِت حدوث اختلال في كيميائيات الدماغ، وهو ما يرفض الأطباء النفسانيون الاعتراف به [553].

«بالرغم من أنَّ الطبيب قد يقول للمريض إنَّ النقص في كيميائيات العقل هو الذي يسبب له الاكتئاب، فإنَّه لا يستطيع تقديم أي دليل يُثبِت وجود اكتئاب بيولوجي» [554]. كما يقول الدكتور بيتر بريجين، مؤلِّف كتاب **العلاجات المعطلة للدماغ** [555]. وتقول الدكتورة لورين موشير؛ الرئيسة السابقة لمعهد الصحة العقلية الوطنية لدراسة انفصام الشخصية: «لا يوجد أي معيار يدعم التشخيصات النفسانية» [556]. أما الدكتور إليوت فالنشتاين، مؤلِّف كتاب لوم الدماغ فيقول: «لا توجد أي فحوص لقياس التركيبة الكيميائية لدماغ الإنسان الحي» [557].

كان كتاب كيلي عزاءً لي بعد معاناتي في سجن كارسويل. وقد أشارت المؤلِّفة إلى تزايد معارضة العائلات لاستخدام التقارير النفسانية في المحاكم، وأسوأ ما يفعله الأطباء النفسانيون هو النظر إلى السلوكات العادية وردود الأفعال تجاه الأحداث (مثل: الحزن على وفاة قريب، أو

القلق الناجم عن حالات الطلاق أو فقدان الوظيفة) بوصفها اختلالات عقلية، وهم يستخدمون ذلك ذريعة لإجبار الأفراد على تناول الأدوية النفسانية. يواجه البالغون أو المراهقون -مثلًا- ضغوطًا كبيرةً للتكيف مع خطط العلاج بالمهدئات؛ نظرًا إلى آثارها الجانبية العكسية، وعندما يحدث ذلك يصف الأطباء أدوية إضافية لمعالجة المشكلات الناجمة عن الأدوية الأُولى، ونتيجة لذلك يجري تخدير الشعب الأمريكي بطريقة تُؤثِّر في سلوكهم إلى الأسوأ.

وأخيرًا، يثير هذا الكتاب أسئلة كثيرة تتعلق باستهداف النساء بهذه الأدوية؛ فمثلًا: أخذت شركة إيلي ليلي تُسوِّق البروزاك باسم سارافيم للنساء اللواتي يعانين التوتر قبل الدورة الشهرية، وهذان الدواءان متشابهان فيما عدا أنَّ لون البروزاك أخضر، ولون السارافيم زهري [558].

والسؤالان المطروحان هنا، هما: هل ستتوقف النساء عن تناول هذا الدواء بعد معرفة الحقائق؟ ثم: متى كانت الدورة الشهرية مرضًا عقليًّا؟

في حالتي، شخص الأطباء النفسانيون شعوري بالثقة والدافعية والاعتزاز بأنَّها مرض عقلي [559].

هذه هي اللغة الجديدة التي يستعملها الطب النفسي لمهاجمة جوانب القوة عند المرأة، مع أنَّ هذه الصفات قد تُعَد عند الرجال طموحًا وتصميمًا.

لقد استخدم الأطباء النفسانيون سُلْطتهم الطبية ليُثبِتوا أنَّ امرأةً مثلي يستحيل أنَّها شاركت في نشاط مكافحة الإرهاب؛ ولذلك قرروا أنَّني أعاني مرضًا عقليًّا يجعلني أعتقد أنَّني مارست هذا النشاط تسع سنوات، فكان لا بُدَّ أن أتعذَّب لأشفى، وأستعيد ثقتي بنفسي [560].

لسوء الطالع أنَّ هذه المواقف لم تتغير بعد خروجي من سجن كارسويل؛ فقد طالب الأطباء النفسانيون بإخضاعي إلى إعادة تأهيل لاجتثاث قوتي، واستقلالية شخصي، ومهارات اتخاذ القرار. وفي رأيهم، فإنَّني سأصبح معافاةً عندما تتوقف أعراض الثقة والدافعية، وعندما أتوقف عن الاعتقاد بأنَّني عشت حياة مجدية ذات معنى. لو أنَّني لم أقاوم لكانت هذه الحجج لا تزال مستمرةً حتى اليوم.

الخلاصة هي أنَّ الطب النفسي وصناعة الأدوية يُعَدان تجارةً كبيرةً تدر أرباحًا باهظةً، وهما يُسوِّقان بضاعتهما في المحاكم.

وهكذا، فإنَّ هذا الكابوس لم ينتهِ بعدُ، بالرغم من انتصاري في قضية التخدير القسري؛ ولهذا كان عليَّ مراجعة عيادة الاستشارات النفسانية للخضوع لعملية تقييم نفساني أخرى.

ولحُسن الطالع أنَّ العامل السياسي قد خرج من معادلة التشخيص، فما الذي توصل إليه التقييم الجديد؟ لقد وجدوا أنَّني أعاني توتر ما بعد الصدمة؛ نتيجةً لما مررت به في كارسويل، ولا شيء آخر [561]. وبعبارة أخرى، ووفقًا لهذا التشخيص: لو أنَّني لم أوضع في السجن من دون محاكمة، ولو أنَّهم لم يُهددوني بالتخدير القسري، لما كنت قد عانيت أي أعراض [562].

وبالرغم من ذلك، فقد أُجبرت على الخضوع لاستشارة نفسانية مدَّة تسعة أشهر إلى أن رفضت الاستمرار.

لقد كان عليَّ أن أعاني كل يوم سبت تكرار خبرتي في سجن كارسويل، والحديث عن الإساءات التي تتعرَّض لها السجينات، والذكريات المريرة التي ما تزال تلاحقني حتى هذا اليوم؛ والأكثر من ذلك أنَّ الدكتورة تيريزا بيرتون (الطبيبة النفسانية المعتمدة من المحكمة) كانت تقضي الوقت في البحث في شبكة (الإنترنت) عن ثيابٍ لابنتها، وأمكنة التسلية للترفيه عنها في نهاية الأسبوع، في حين كنت أضطر إلى الجلوس في مكتبها وأنا أعاني الملل الشديد.

كان عليَّ أن أقضي في عيادتها ساعة كاملة، وهي تبحث في شبكة (الإنترنت)، أو تُقلِّب صفحات المجلات. كان يمكن اختصار عدد الجلسات؛ لأنَّها كانت مضيعةً للوقت، ولا قيمة لها في حياتي، لكنَّ صاحبة العيادة ما كانت لتجمع الأموال لو فعلت ذلك؛ فقد كنت الصراف الآلي بالنسبة إليها.

إنَّ الأطباء النفسانيين لا يهدفون إلى جعل الزبائن أقوياء أو مستقلين، ولو فعلوا ذلك لخسروا هؤلاء الزبائن؛ ولهذا فَهُم يحاولون جعلهم يُركِّزون طاقتهم كلها على الأشياء السيئة، ولا عجب في أنَّ الناس الذين يشاركون في الجلسات الطويلة يعيشون حياة تعيسة.

وهكذا، فإنَّ الطب النفسي علمني شيئًا مهمًّا جدًّا، هو أنَّ تركيز طاقة الإنسان كلها على الخبرات السيئة غباء؛ إذ لا فائدة من اجترار هذه الخبرات مرَّةً تلو الأخرى. ولإثبات ذلك؛ فقد بدأت لقاءاتي مع بيرتون في شهر أكتوبر، ثم توقفت في منتصف شهر ديسمبر لظروف اضطرتها إلى إلغاء الجلسات، وتأجيلها حتى نهاية فبراير.

لقد أسعدني ذلك كثيرًا؛ إذ ساعدني على استعادة حريتي لشهرين قادمين، فماذا حدث لي من دون هذه الاستشارة والتوجيه؟ كيف تعايشت مع قلق ما بعد الصدمة طوال شهرين كاملين؟

لقد تحسن جوهر حياتي فورًا، فأصبحت أكثر سعادةً، وكدت أنسى غضبي ومعاناتي، واستعدت ثقتي بنفسي، واستطعت في هذين الشهرين ترتيب شؤوني المالية، ودفعت ديوني، وأعدت تصميم مطبخي؛ ولسوء الطالع، فإنَّ بيرتون حلت مشكلاتها في نهاية شهر فبراير، وفتحت عيادتها مرَّةً أخرى، فعدت إلى رحلة التعاسة، كانت كل جلسة تملؤني بالغضب، وكان إلغاء الجلسات يزيدني سعادةً طوال الأسبوع، وتأسيسًا على ذلك، فقد أخذت أسأل: ما جدوى حضور مثل هذه الجلسات؟ وباعتقادي، فإنَّ التمارين الرياضية والترفيه عن النفس يمكنهما تخفيف التوتر والقلق أكثر من الجلسات النفسانية.

وبالرغم من اضطراري إلى حضور هذه الجلسات، فإنَّ المدعي العام أوكالاهان لم يعجبه تشخيص بيرتون؛ لأنَّها لم تجد أي مُسوِّغ لوصف أدويةٍ تشفيني من أي شيء.

ولذلك، فقد طلب إليَّ الخضوع لتقييم جديد؛ لأنَّ بيرتون كانت خبيرةَ علم نفس، وليست طبيبةً نفسانيةً، لكنَّ بيرتون استغربت هذا الطلب، مثلما احتجت هيئة خدمات ما قبل المحاكمة، وقالت إنَّ هذا مضيعة للوقت والمال.

عندما سمع الطبيب النفساني الثاني روايتي أظهر قدرًا كبيرًا من الحكمة؛ إذ أكد في تقريره أنَّ الدكتورة بيرتون موثوقة، ولا يمكنه أن يضيف شيئًا إلى استنتاجاتها [563]، وقد رفضت هيئة خدمات ما قبل المحاكمة تسليم المحامي شوغنيزي نسخة من التقرير، لكنَّ بيرتون أخبرتني بما جاء فيه.

ومرَّةً أخرى، وبعد أسابيع قليلة، أمر أوكالاهان أن أخضع لتقييم ثالث، ولكن هذه المرَّة عند الدكتور كلينمان، وهو أول مَن أعلن أنَّني غير أَهْلٍ عقليًّا للمثول أمام المحكمة.

والمثير في الأمر أنَّ القاضية لوريتا بريسكا، التي جاءت بعد القاضي موكاسي، استجابت لطلب أوكالاهان، وهذا ما جعلني أخضع لثلاثة تقييمات إضافية بعد خروجي من سجن كارسويل [564].

كان المدعي العام يبحث عما يريد أن يسمعه، ولم يكن ليحصل على ذلك خارج الطب النفسي المُسيَّس، وما حدث الآن هو أنَّني تعلمت أشياء قليلة عن كيفية حماية نفسي من ممارسات الأطباء النفسانيين الفاسدين؛ كانوا يضحكون في وجهي عندما كنت أقول لهم إنَّ روايتي حقيقية، وإنَّني أريد أن أُثبِت ذلك في المحكمة.

لقد اكتشفت طريقة لحماية نفسي، وأنا أنصح أي فرد يُجبَر على الخضوع لتقييم نفساني بأمر من المحكمة أن يتبع هذه الطريقة، ولو أنَّني كنت أعرف ذلك من قبل لوفرت على نفسي الكثير من المعاناة، تتلخص هذه الطريقة في استخدام جهاز تسجيل لإثبات صدق ما تقوله، وكذب ما يقوله الطبيب النفساني، وعليك أن لا تفترض أنَّ مجرد المشاركة في حديث عقلاني يعني أنَّ هؤلاء الأشخاص عقلانيون، فالعكس هو الصحيح؛ لأنَّ دورهم هو تحريف كل شيء تقوله من أجل تسويق بضاعتهم.

هذا ما يُفسِّر السبب الذي جعلني أحمل معي جهاز تسجيل في ثالث جلسة تقييم [565]، وبذلك صرت أحشر بعضهم في الزاوية [566].

اسمحوا لي أن أقول لكم السبب، كما في هذا النص من جلسةٍ مع الدكتور كلينمان، في الثامن من شهر ديسمبر عام 2007م [567]، وهو يختلف عما يمكن أن تتوقعوه:

سوزان: هذه سوزان ليندار في مكتب سام تالكين، وأنا أطلب إليه رسميًّا حضور هذه الجلسة، وقد استدعيت إلى هنا بطلب من المحكمة، وهي جلسة مع الدكتور كلينمان الذي أتهمه بالحنث في اليمين في قضيتي. لقد أكد مكتب التحقيقات الفيدرالي روايتي، وأنا أقوم بهذا التسجيل لأهداف قانونية في قضية محتملة ضد الدكتور كلينمان.

الدكتور كلينمان: صباح الخير، عليَّ أن أقول قبل كل شيء أنَّ اسمي هو الدكتور كلينمان، وقد كلفت من مكتب الادعاء العام بإجراء فحص نفساني لحالتك العقلية، وهو يتعلق بالاتهامات المُوجَّهة إليك وفهمك لها.

سوزان: أجل، لقد سبق أن أعلنت أنَّني بريئة من هذه الاتهامات، وقد طالبت بتقديمي إلى المحاكمة، إلا أنَّ المدعي العام رفض لثلاث سنوات تقديمي إليها.

كلينمان: حسنًا، سنتحدث عن ذلك بعض الوقت؛ بدايةً، هل تعرفين الشخص الجالس إلى يميني وإلى يسارك؟

سوزان: إنَّه المحامي.

كلينمان: وما اسمه؟

سوزان: لقد تذكَّرت ذلك في التسجيل، اسمه سام تالكين، نحن في مكتبه في مانهاتن.

كلينمان: هل تسمحين لي بالتحدث إليك؟

سوزان: أنا هنا بأمر من المحكمة.

كلينمان: إذا قررت في أي مرحلة أنَّك لا ترغبين في التحدث إليَّ، أرجوك أن تخبريني.

سوزان: أنا هنا بأمر من المحكمة، ولهذا أتوقع منك أن تطرح أسئلتك، لقد تركت بيتي في الساعة السادسة وأربعين دقيقةً صباحًا، ووصلت إلى نيويورك بعد ساعة، أتوقع أن تطرح أسئلتك بسرعة لنتمكن من إنهاء الجلسة، وأنا أرفض الإجابة عن أسئلة تتعلق بإستراتيجية الدفاع، ما عدا أنَّني لن أستخدم محاميًا رسميًّا، وأنا أعرف أنَّ المدعي العام لا يحق له فرض ذلك المحامي، سأستدعي بعض الشهود الذين سيُؤكِّدون صحة روايتي بسهولة، وهي الرواية التي يعتقد السيد كلينمان أنَّها وهمية، هذا هو الوصف الذي استخدمته أنت.

كلينمان: كيف تعتقدين أنَّ شخصًا يستمع إليك الآن سينظر إلى ما تقولين على أنَّه... .

سوزان: لا يهمني ذلك.

كلينمان: في رأيك أنت.

سوزان: لا يهمني.

وبعد مدَّة قصيرة من هذا الحديث:

سوزان: سأزودك بنسخة من هذا الشريط، هذه ليست مشكلة.

كلينمان: حسنًا، كنت سأطلب تسليم الشريط للسيد تالكين.

سوزان: كلا كلا.

كلينمان: دعيني أُكمل حديثي... وأن يعمل السيد تالكين نسخةً منه للأسباب الآتية.

سوزان: كلا كلا، لديَّ محام في واشنطن (السيد شوغنيزي) سيرفع قضية ضدك، فأنت مذنب بالكذب بعد أدائك القسم أمام المحكمة؛ لقد قضيت سنة في السجن لأنَّك كذبت على القاضي، تريد أن تقول أنَّك طبيب، لقد زعمت أنَّني غير أَهْلٍ عقليًّا للمثول أمام المحكمة، واتهمتني بأنَّني واهمة، وأوصيت بتخديري بالقوة.

كلينمان: حسنًا، هذه هي الشروط، سأطلب تسليم النسخة الأصلية من الشريط إلى السيد تالكين قبل مغادرتك.

سوزان: كلا.

كلينمان: لا بأس.

سوزان: لن أفعل ذلك، لكنَّني سأضمن أن تحصل على نسخة من الشريط.

كلينمان: هذا جيد، ولكن أود التحقق من وجود نسخة واحدة من هذا الشريط.

سوزان: أنا لا أثق بالسيد تالكين؛ لأنَّه رفض مرارًا إجراء مقابلات مع الشهود، فقد أثبت -للأسف- أنَّه ليس أهلًا للثقة.

كلينمان: أنت لا تثقين به.

سوزان: لا أثق به إطلاقًا.

كلينمان: ماذا تعتقدين أنَّنا سنفعل بالشريط؟

سوزان: ستضيعونه.

اتفقنا أخيرًا أن ننسخ الشريط في مكتب السيد تالكين، وكان ذلك حيث أخذت النسخة الأصلية، وحصل كلينمان على نسخة أخرى.

لقد أثبت تسجيل الجلسات أهميته الكبيرة في معركتي القانونية الثانية؛ فقد أَجبر السيد شوغنيزي المحكمة -بعد مُضي سنة- على عقد جلسة للنظر في أهليتي العقلية، بعد تقديم التقييم الثالث من الطبيب النفساني الدكتور ريتشارد باتنر، وفي جلسة الاستماع تلك بنى الدكتور كلينمان شهادته على أساس ذلك الاجتماع [568] [569].

كان واضحًا أنَّ الدكتور كلينمان لم يدرك أنَّني احتفظت بتلك الأشرطة، بدلًا من تسليمها إلى تالكين مثلما طلب، أو ربما افترض أنَّني أضعتها. وفي الأحوال كلها، فعندما كذب الدكتور كلينمان في وصف حديثنا للقاضية بريسكا، فاجأ شوغنيزي الجميع عندما طلب الإذن بتنفيذ الأكاذيب التي وردت في شهادة الدكتور كلينمان [570]، ثم قدَّم نصًّا مكتوبًا لإثبات عكس ما قاله كلينمان.

الفكرة من وراء هذه الحكاية هي أنَّ على الشخص الذي يمر بهذه الحالة تسجيل الجلسات، وتفريغ النصوص، والاحتفاظ بالأشرطة؛ لمنع الطبيب النفساني من تحريف ما يحدث في الجلسات. وإليكم مثال آخر [571]:

كلينمان: لنعد إلى الوراء قليلًا؛ لقد قلت في الجلسة السابقة أنَّ الهدف هو الحديث عن التستر على المعلومات الاستخباراتية لمرحلة ما قبل الحرب، هل تعتقدين أنَّ لي أي دور في ذلك؟

سوزان: نعم.

كلينمان: وهل كنت أقوم بهذا الدور مُتعمِّدًا؟

سوزان: نعم.

كلينمان: حسنًا، إذن، أخبريني: ما دوري المتعمَّد في عملية التستر؟

سوزان: لقد كذبت مُتعمِّدًا على القاضي، لقد أخبرتك أنَّني كنت وسيطًا سريًّا مكلفًا بمتابعة الشأن العراقي، لقد كذبت وزعمت أنَّني واهمة؛ لأنَّني أُؤمن بقيامي بهذا العمل، وهذا ما فعلته طوال تسع سنوات.

كلينمان: حسنًا.

سوزان: لقد أعلنت أنَّني غير أَهْلٍ عقليًّا للمثول أمام المحكمة، وهذه مهزلة، كان ذلك من أجل أن لا يتحمَّل السياسيون مسؤولية قراراتهم؛ ليلوموا الوسطاء السريين بزعم أنَّهم لم يُوفِّروا لهم معلومات موثوقة. وبالمناسبة، فقد فتح مجلس الشيوخ تحقيقًا في المعلومات الاستخباراتية الخاصة بشهر يناير من عام 2003م، ووصفها بأنَّها صادقة واستشرافية.

كلينمان: إذن، هل أفهم من ذلك أنَّ الحكومة أمرتني بأن أعمل تقييمًا لتحديد أهليتك للمثول أمام القضاء؟ هذا ما أفهمه.

سوزان: هذا صحيح، ولكنَّني أوضحت لك أنَّني كنت وسيطًا سريًّا، وأنَّني كنت أقوم بذلك منذ سنوات، لكنَّك ذهبت إلى المحكمة، وقلت: لا أحد يستطيع توكيد روايتها، مع أنَّه من السهل إثبات ذلك.

كلينمان: من السهل إثبات ذلك، هل أعطيت محاميك هذه المعلومات؟

سوزان: بالتأكيد، لكنَّه لم يفعل شيئًا لإجراء مقابلات مع أولئك الناس؛ ولهذا بحث عنهم عمي تيد، وعمل مقابلات معهم.

كلينمان: إذن، عمك هو الذي أجرى مقابلات معهم.

سوزان: عمي محامي منذ أربعين سنةً، وهو الذي أجرى مقابلات معهم، وقد ردوا على مكالماته الهاتفية فورًا.

كلينمان: إذن، فقد أعطيت السيد تالكين هذه المعلومات.

سوزان: بالتأكيد.

كلينمان: هل أعطيته إياها فعلًا؟

سوزان: نعم نعم.

كلينمان: إذن، فهو قد... .

سوزان: كل شيء كان فوضى... .

كلينمان: لنعد إلى الوراء قليلًا، ونتحدث عن المحاكمة، ما التهم المُوجَّهة إليك؟ ما هي؟

obeikan.com

سوزان: أنت تعرف هذه التهم، أنا متهمة بأنَّني عميلة عراقية، وهذا أكثر شيء سخيف سمعته في حياتي. أريد أن أسمع المدعي العام يقول للشعب الأمريكي إنَّ العمل في مكافحة الإرهاب جريمة، وبالمناسبة فأنا أحد الذين حذَّروا من هجمات الحادي عشر من سبتمبر.

كلينمان: وكيف عرفت بهجمات الحادي عشر من سبتمبر؟

سوزان: كنا نتوقع الهجوم منذ أشهر.

كلينمان: مَن تقصدين بـ (كنا)؟

سوزان: ريتشارد فيوز الذي أشرف عليَّ أشهرًا عدَّةً بعد محاكمة لوكيربي، والذي ألح عليَّ دائمًا لمعرفة إن كنت أملك أي معلومات عن أي هجمات محتملة، خاصةً الهجوم بطائرات مختطفة، وقد أمرني أن أُبلغ العراقيين والليبيين بأنَّه إذا هاجم أحد الولايات المتحدة وكانوا يعلمون بذلك، فسنعيدهم إلى العصر الحجري.

كلينمان: وهل قلت هذا للعراقيين والليبيين؟

سوزان: نعم، والحقيقة أنَّ ريتشارد فيوز قام بدوره على أكمل وجه؛ إنَّه رجل قوي، ويعمل لحماية بلاده، لا يوجد شيء يجعله يخجل من ذلك، وكذلك أنا، هذه هي الطريقة التي نعمل بها.

كلينمان: دعينا نتحدث عن العراق؛ لقد قلت لي مرَّةً أنَّك كنت في العراق.

سوزان: أجل، لن أُناقش أي أسئلة تتعلق بالتهم المُوجَّهة إليَّ.

كلينمان: أنا أسأل فحسب، هل تدركين أنَّه توجد تهمة مُوجَّهة إليك؟

سوزان: نعم، أنا أُدرك ذلك، وسأدحض هذه التهم في المحكمة.

كلينمان: ولكن، ماذا تعرفين عن هذه التهم؟ التهم موجودة، وأنا أسأل لأتأكد أنَّك تفهمين ما تعنيه.

سوزان: التهمة هي أنَّني سافرت إلى بغداد.

كلينمان: وماذا بعد؟

سوزان: جوابي هو أنَّهم كانوا يعرفون أنَّني سأذهب إلى بغداد، وأستطيع إثبات ذلك في المحكمة، وأستطيع إثبات أنَّني طلبت الإذن بذلك، كنت أقوم بما هو مطلوب مني القيام به، كانت نيتي حسنةً، هذا هو جوابي، لم أذهب إلى بغداد من دون معرفة الجميع، لو كانوا لا يريدون أن أذهب لرفضوا ذلك بكل بساطة.

كلينمان: حسنًا.

سوزان: كنت مستعدةً دائمًا للقيام بأي شيء يطلبونه مني.

والحقيقة أنَّني تقدَّمت بطلب رسمي للسماح لي بالسفر إلى بغداد في شهر مارس عام 2001م، وقد بعثت برسالة إلى آندرو كارد، وأرفقت بها الدعوة التي تلقيتها من وزارة الخارجية العراقية، ووعدت بمقابلة أي مسؤول أمريكي قبل الرحلة أو بعدها، ووافقت أيضًا على تأجيل الرحلة في حال طلبوا مني ذلك. يوجد عند المدعي العام نسخة من هذه المراسلات، وعند تالكين أيضًا [572].

بعد هذا المقابلة سأل كلينمان عن فيلم صوره العراقيون في آخر اجتماع لنا في بغداد، وظهر فيه صديقي العراقي الذي وافق على العمل ضابطَ اتصالٍ مع فريق مكتب التحقيقات الفيدرالي، وكان هذا يتطلب منه شجاعة كبيرة لأنَّه يُعرِّض نفسه للقتل.

سوزان: هذا مجرد فيلم لم يهزني كثيرًا.

كلينمان: إذن، ما تفسيرك لهذا الفيلم؟

سوزان: لقد توقعت من العراقيين أن يصوروا هذا الاجتماع، أنا وسيطة سرية، كنت أعمل على إقناعهم بإعطائنا معلومات عن الإرهاب، كنت أتوقع منهم أن يصوروا الاجتماع.

كلينمان: حسنًا.

سوزان: لقد توقعت أنَّهم يسجلون ذلك، بالصورة أو الصوت، وهذا ما لم أعرفه، ولكنَّني توقعت أنَّهم سيفعلون ذلك.

كلينمان: لأنَّك وسيط سري.

سوزان: إنَّهم يعرفون ذلك، هذه لعبة، وهذه هي الطريقة التي نعمل بها، لقد أعطوني تعليمات، وتصرفت وفقًا لها، وقلت لهم: أخبروني ماذا تريدون، وسأقوم بذلك، أستطيع أن أُثبِت هذا للمحكمة.

كلينمان: هذا جيد.

سوزان: لم يكن عملي يُمثِّل مشكلة حتى تشكيل اللجنة الرئاسية للتحقيق في المعلومات الاستخباراتية السابقة للحرب على العراق، إنَّ لهم الحق في أن يشنقوني لو رفضت تقديم المساعدة بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر، إنَّ سبب اتصالاتي الرئيس هو أنَّه كان لا بُدَّ من وجود شخص له اتصالات قوية داخل الحكومة العراقية، يستطيع تزويدنا بمعلومات عن أي هجوم إرهابي من أي نوع، ولو أنَّني رفضت الحصول على تلك المعلومات بعد الحادي عشر من سبتمبر، لكان هذا خيانةً، ولكان ذلك مخالفًا لكل ما أُؤمن به.

تركز معظم الحديث مع الدكتور كلينمان على إمكانية التوصل إلى صفقة أعترف فيها أنَّني مذنبة لقاء وقف ملاحقتي، وهكذا عرفنا كذبه على المحكمة؛ لقد أَلح عليَّ الدكتور كلينمان مرَّةً تلو الأخرى لأعترف أنَّني مذنبة بتهمة التهرُّب الضريبي لكنَّني رفضت بشدة، وقد سجلت هذا كله [573].

والطريف في الأمر أنَّني لم أُتَّهم بالتهرُّب الضريبي [574]، ولم أكن مطالبةً بدفع أي ضرائب، وقد كان العرض مجرد وسيلة لإنهاء القضية؛ لأنَّ المدعي العام كان يدرك أنَّه لن يستطيع إدانتي بالتهم الأصلية، فكان عليهم البحث عن مخرج آخر.

وما أثار دهشتي هو أنَّ الدكتور كلينمان شهد أمام المحكمة أنَّني قلت إنَّ المدعي العام هو الذي طرح فكرة اعترافي بأنَّني مذنبة، وأبلغ القاضية أنَّه لم يكن يعلم بوجود مثل هذا العرض [575]، وأنَّه بعد التحقُّق من الأمر مع أوكالاهان اكتشف أنَّني كنت مخطئةً، وقال إنَّ خطأي بخصوص هذه الصفقة يُثبِت أنَّني ما زلت غير أَهْلٍ عقليًّا للمثول أمام القضاء.

لقد صُدِمت عندما سمعت ذلك.

مـرَّةً أخـرى، انـبرى شـوغنيزي لتعريـة كذب كلينمـان، وأثبـت أنَّه هـو الذي طرح الأسـئلة الخاصة بالصفقة [576]، وهو ما رفضته مرَّةً تلو الأخرى، وهكذا ثبت كذبه أمام القاضية.

توجـد ملاحظـة أخرى هـي أنَّ أسـئلة كلينمان التي اسـتغرقت نصف سـاعة لم تتطرَّق إلى وضعي النفساني، وإنَّما تركزت على مناقشة وضعي المالي [577]:

كلينمان: إذن، لا يزال عندك بيت.

سوزان: أجل.

كلينمان: هل البيت مرهون؟

سوزان: نعم.

كلينمان: هل تُسدِّدين الرهن؟

سوزان: نعم.

كلينمان: ما مدَّة السداد؟

سوزان: كل شهر مثل أي شخص آخر.

كلينمان: ما قيمة الدفعة الشهرية؟»

سوزان: نحـو (2500) دولار شـهريًّا، وقد أعـدت جدولة الدفعات وطلب القرض، وهذا يشـمل الضرائب.

كلينمان: هل استعنت بأي وكيل عقارات في جدولة الدفعات؟

سوزان: نعم، بالتأكيد.

كلينمان: أنا لست خبيرًا، ولكن يمكننا ترتيب ذلك مباشرةً مع المصرف، أو وكيل العقارات.

سوزان: أجل أجل.

كلينمان: وهل فعلت ذلك مع المصرف أم الوكيل؟

سوزان: مع الوكيل.

كلينمان: وماذا كان سبب إعادة الجدولة؟

سوزان: من أجل الحصول على فائدة أفضل؛ لدفع ديوني، وعمل تحسينات في البيت.

obeikan.com

كلينمان: يعني هذا أنَّك حصلت على قرض، كم كانت الفائدة؟

سوزان: هذا ليس من شأنك.

كلينمان: لا بأس إذا لم تقولي لي ذلك، أريد فقط أن أفهم طريقة تفكيرك.

سوزان: هذا أمر لا يعنيك.

كلينمان: هل يبدو لك هذا تطفلًا؟

سوزان: نعم.

كلينمان: كيف يبدو لك هذا تطفلًا؟

سوزان: هذا ليس من شأنك.

كلينمان: هل لديك حساب في المصرف؟

سوزان: لن أجيب عن أي من هذه الأسئلة، أنت إنسان مقرف.

كلينمان: هل أنا كذلك حقًّا؟

سوزان: نعم، لقد أعدت جدولة القرض، وحصلت على فائدة جيدة، ودفعت ديوني كلها، وأعدت تصميم مطبخي، وركَّبت شبابيك جديدة.

كلينمان: لماذا أنا متطفل في رأيك؟

سوزان: لأنَّك تبحث عن سبب لمضايقتي.

كلينمان: أنا لا أبحث عن أي شيء، الأمر يتعلق بحالتك العقلية.

سوزان: هل هذا صحيح؟ قل لهم إنَّني مكتئبة جدًّا؛ حتى إنَّني دفعت ديوني كلها، وإنَّني قلقة لأنَّ ديوني انتهت، ما هذا الهُراء!

كلينمان: أي هُراء؟ لكنَّ هذا يتعلق بأهليتك العقلية.

سوزان: أنت بائس... .

هل رأيتم الفرق الذي يُحدِثه التسجيل؟ ربما كنتم تتوقعون بعض الحديث العاطفي عن صدمة الطفولة، أو بعض المشاعر الدفينة عن الحياة، أنا أتحدى أي إنسان أن يشرح كيف تُعبِّر هذه المحادثة عن حالتي العاطفية، وكيف تُظهر قدرتي على الإسهام في دفاعي أمام المحكمة.

obeikan.com

إنَّ هذه الجلسات والمقابلات كلها لم تُشغل برايان شوغنيزي عن متابعة قضيتي؛ فقد بدأ إجراء المقابلات مع الشهود وجمع الأدلة [578]. وبالرغم من أنَّ تالكين ظل يَظهر معي ويحضر الجلسات إلا أنَّ شوغنيزي أخذ يسافر إلى نيويورك لحضور جلسات تقييم الوضع مع القاضية بريسكا [579].

في ضوء جلساتي مع الدكتور كلينمان أصبحت وزارة العدل تعرف إستراتيجية دفاعي، وأدرك شوغنيزي أنَّها كانت تعمل جاهدة لمنعي من استخدامها؛ لأنَّني سأنجح في كشف زيف التهمة، وستكون الحكومة في موقف حرج بسبب الأكاذيب التي قالتها عن المعلومات الاستخباراتية السابقة للحرب، وهجمات الحادي عشر من سبتمبر.

بحلول شهر مايو عام 2007م، أبلغت سام تالكين أنَّني لن أستمر في حضور الجلسات في عيادة الاستشارات النفسانية، وكان شوغنيزي يوجهني بذكاء، ويحثني على إعطاء المحكمة فرصة معقولة لنتمكن من إغلاق ملف القضية. في صيف ذلك العام عقدنا جلسات عدَّة مع المدعي العام، ثم ذكَّرنا القاضية أنَّ الأطباء النفسانيين حشروا موضوع عدم الأهلية العقلية في القضية، وفرضوه عليَّ من دون محاكمة، في انتهاك صارخ لحقوقي، وقال لها شوغنيزي إنَّه سيتولى الدفاع عني رسميًّا، ويرفع الأمر إلى القضاء إذا لم تنتهِ القضية قبل ذلك.

وعند هذا الحد سيُرمى الطب النفسي في المزبلة، وهي مكانه الصحيح.

في شهر أغسطس أعطى شوغنيزي المدعي العام فرصة أخيرة لإسقاط القضية، وذكَّره بوعد تالكين قبل سجن كارسويل أنَّ وزارة العدل ستسقط التهم إذا تعاونت في موضوع عدم الأهلية القانونية، وقد مضى عام على خروجي من السجن.

قال أوكالاهان إنَّه قد غيَّر رأيه، وإنَّ التهم ستظل مُوجَّهةً إليَّ لسنة قادمة، وربما سنتين.

شكره شوغنيزي بلطف، ثم انتقلنا للتحضير لجولة أخرى من المواجهة.

كان واضحًا أنَّ أوكالاهان لم يتعلم الدرس الحقيقي من حرب الاستخبارات؛ وهو سيطرته على أفعاله، لا أفعالي، ولهذا، رفضت في شهر أغسطس عام 2007م العودة إلى عيادة الاستشارات النفسانية بعد مرور عشرة أشهر على تلك الجلسات العبثية [580].

وقد أبلغت المحكمة أنَّني أرفض الاستمرار في هذه اللعبة، ثم حدث تطور جديد هو انضمام أوكالاهان قريبًا إلى حملة جون ماكين الرئاسية؛ مستشارًا في شؤون الأمن القومي ومكافحة الإرهاب [581]. كان هذا تحولًا مثيرًا، فقد اعتُقلت بعد مهاتفتي مكتب ماكين، طالبةً الإدلاء بشهادتي أمام اللجنة الرئاسية المكلفة بالتحقيق في أداء الاستخبارات في مرحلة ما قبل الحرب على العراق، لكنَّهم رفضوا طلبي.

والحقيقة أنَّني كنت أعتقد منذ سنوات أنَّ الجهة الاستخباراتية التي كانت تهاجمني ترتبط بعلاقات مع جون ماكين، وقد أكد هذا الرفض صحة شكوكي. لكنَّ الذي لم يتوقعه أوكالاهان هو أنَّ قضيتي أصبحت الآن بيد محامٍ بارز وافق على رفعها إلى المحكمة.

obeikan.com